

المجتمع الأهلي وثقافة المقاومة: التجربة المصرية نموذجا 1/2

11-6-2005

هذا التحول في الوعي بخطورة "الغزو الثقافي" من دائرة النخبة المحدودة و الضيقة بطبيعتها ، ليمتد ليشمل العناصر المكونة لقوام الأمة الأساسي -المجتمع الأهلي- أوجد مناخا عاما شديد الحساسية، إزاء أي جهد يستهدف هوية الأمة، سواء كان هذا الجهد وافدا من الخارج، أو بمبادرات تدلف إليه من الداخل. على النحو الذي يمكن توصيفه بأنه بلغ مبلغ "ثقافة مقاومة" تتسم بالتلقائية وتستنهض بعفوية للتصدي لكل عمل تشتم منه رائحة "الغزو الثقافي".

[بقلم محمود سلطان](#)

أثمر التحدي الحضاري بين الغرب والشرق، على مدى المائتي عام الماضية، مسلمة استقرت في قناعات النخبة في العالمين العربي والإسلامي، مفادها "أن احتلال العقل أشق بمراحل من احتلال الأرض". ولعل التجربة العربية تحديدا كانت أكثر التجارب ثراء وغنى في هذا الإطار، بعدما تواترت الخبرة على ما يشبه "القانون الثابت"، ما حمل بعضهم على التوجس من أي شكل من أشكال التعاون العلمي العشوائي مع الغرب، وتستند مخاوفهم إلى أن التجربة علمتهم أنه عادة ما كان يسبق الاحتلال العسكري محاولات فهم واختراق عقل الأمة من خلال نشاط الوافدين تحت ستار البحث العلمي والمؤسسات العلمية الغربية. ويعتبر هؤلاء أنه ليس من قبيل المصادفة، أن يسبق افتراس مصر من قبل الاحتلال البريطاني عام 1882، قيام الحملة الفرنسية، في بداية القرن التاسع عشر، بوضع مؤلف "وصف مصر" الذي مثل الأداة المرجعية لكل عمليات النهب الاقتصادي والاجتماعي الذي عاشته مصر

طوال الفترة السابقة لانقلاب يوليو عام 1952. أي أن ثمة وعيا كان حاضرا وبقوة بأن "احتلال الوطن" كان يسبقه عادة "احتلال العقل"، هذا الوعي تمخض عنه صياغة مصطلح "الغزو الثقافي"، كعلامة إرشادية تختزل الكثير من التفاصيل، صاغتها النخبة من جهة وتلققتها القوى الاجتماعية التي رشحتها التطورات لقيادة الشارع مثل الموظفين والعمال والأحزاب والنقابات المهنية والحركة الطلابية من جهة أخرى.

هذا التحول في الوعي بخطورة "الغزو الثقافي" من دائرة النخبة المحدودة و الضيقة بطبيعتها ، ليمتد ليشمل العناصر المكونة لقوام الأمة الأساسي -المجتمع الأهلي- أوجد مناخا عاما شديد الحساسية، إزاء أي جهد يستهدف هوية الأمة، سواء كان هذا الجهد وافدا من الخارج، أو بمبادرات تدلف إليه من الداخل. على النحو الذي يمكن توصيفه بأنه بلغ مبلغ "ثقافة مقاومة" تتسم بالتلقائية وتستنهض بعفوية للتصدي لكل عمل تشتم منه رائحة "الغزو الثقافي".

هذه الثقافة لم يستدعها أحد، وإنما عبرت عن نفسها بتلقائية، للتصدي لأربعة محاولات استهدفت اختراق عقل الأمة والنيل من عقيدتها، فيما اعتبر مشروعا ثقافيا، لتحديد القرآن الكريم، في صراعنا الحضاري مع الغرب ابتداء من كتاب علي عبد الرازق "الإسلام وأصول الحكم" عام 1924 وطه حسين "في الشعر الجاهلي" عام 1926، ومرورا برسالة محمد أحمد خلف الله "الفن القصصي في القرآن الكريم" عام 1946، وانتهاء بمجموعة أعمال نصر حامد أبو زيد (1992 - 1995) وأزمة "وليمة لأعشاب البحر" عام ، في مصر، والأعمال

القصصية للروائيتين الكويتيتين ليلى العثمان وعالية شعيب، ووجدى الأهدل في اليمن وغير ذلك من تجارب، دلت في مجملها على أن ثقافة مقاومة الغزو الثقافي، باتت مكونا أساسيا من مكونات وعي وضمير الأمة.

ولعل ظاهرة "الصحة الإسلامية" التي تنامت، في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي "العشرين"، ولا زالت تتقد حيوية واشتعالا حتى الآن، لعلها -وبحسب أكثر التحليلات العلمانية حصافة- تعود إلى هذا الوعي وإلى هذه الثقافة، دفاعا عن هوية الأمة المستهدفة.

وعلى الرغم من أن التطبيع مع العدو الصهيوني، يعد أخطر أنواع هذا الغزو على الإطلاق، إلا أنه يعوزه نفس الحضور والتأثير في ضمير ووجدان قطاعات واسعة من العالم العربي، ولعلنا لم نصادف انقساما كبيرا بين صفوف النخبة من جهة، واتجاهات الرأي العام من جهة الأخرى، حول قضية تتعلق بما هو "مباح" و ما هو "محرم"، في علاقة الداخل العربي بالخارج الغربي، يشبه هذا الانقسام وتباين الرؤى والمواقف حول العلاقة مع العدو الإسرائيلي، وهو ما جعل الوعي الجمعي بخطورة التطبيع رخوا باعتباره قضية خلافية، وليس ثمة إجماع عربي على تحريمه.

إذ لم يلتفت المصريون -على سبيل المثال- إلى خطورة تحييد مصر، كأقوى دولة في المنطقة، في الصراع العربي الإسرائيلي بعد إبرام اتفاقية كامب ديفيد عام 1979. رغم أن تداعيات الاتفاقية على سلامة الأمن القومي العربي، جاءت سريعا وبدلالات لا تقبل اللبس، وفي رسالتين متتابعتين الأولى

ضرب المفاعل النووي العراقي عام 1981 والثانية، غزو لبنان وحصار بيروت عام 1982. على الرغم من أن العدو اتخذ تدابير من جانب واحد خوفا من رد الفعل الشعبي، إذ انخفض عدد السائحين الإسرائيليين -بحسب مجلة الأهرام العربي في 3/1/1984- من 35 ألف سائح أمضوا 3 ليلة سياحية عام 1981، إلى 16 ألف سائح أمضوا 16 ألف ليلة عام 1983. ولعل ذلك يرجع إلى أنه في الفترة الممتدة من عام 1977 إلى عام 1986 شهدت مصر بعض "الخلل" في المكونات الأساسية للهوية العربية، لا سيما القطاعات الشعبية على تباينها: فلاحين وعمالا وموظفين صغارا. إذ كانت تلك القطاعات هي أكثر الفئات الاجتماعية التي اهتزت لديها قناعات انتمائها العربي، وأكثر القطاعات تصديقا لما روجت له أجهزة الإعلام الرسمية آنذاك بفشل "البديل العربي"، في حل معضلات الواقع المصري سياسيا واقتصاديا، وبالمقابل أهمية البديل "الأمريكي الإسرائيلي"، مصحوبا بخلفية الصلح وعلاقات السلام، وأنهما سيؤديان إلى حل هذه المعضلات، وبالتالي إمكانية قبولهما داخل النسيج الاجتماعي المصري، ما أوجد حالة تاريخية غير مسبوقه شارك في صناعتها الآلة الإعلامية الرسمية وساعد على نضجها، حالة الفراغ الكبيرة الناتجة عن غياب المجتمع الأهلي الذي كان غضا ومشغولا بجمع شتاته التي بعثرتها وقمعتها القيادات التي اعتلت عرش مصر عام 1952.

لقد أغرت هذه "الحالة التاريخية" التي توفرت لها كل شروط الهشاشة، وضعف المناعة الاجتماعية والسياسية، أغرت العدو باستثمارها مستهلا ذلك بتفعيل "الغزو السياحي" ومن بعده

الغزو الثقافي، الذي توج بتوقيع الاتفاقية الثقافية في مايو 198، والتي أتاحت للعدو حضورا رسميا كبيرا في الواقع المصري وقراءته وتفسيره وتوصيفه، بدأت من المركز الأمريكي بالقاهرة في الفترة ما بين عام 1984 - 1986، والذي مول أبحاثا لليهودي الأمريكي "ليونارد بايندر" -عمل مستشارا لجولدا مائير إبان حرب عام 1973، وشارك في حرب 1948، وعمل أستاذا زائرا بالجامعات الأمريكية في مصر- حول احتمالات الثورة الإسلامية في مصر وتأثير ذلك على مجريات الصراع العربي الإسرائيلي. ثم عقد صفقات بحثية بين إسرائيليين ومصريين، مثل صفقة البروفسير الإسرائيلي "ستيفن كوهين" وعدد من أساتذة علم النفس المصريين في سبتمبر عام 1981 شارك فيها من الجانب المصري د.قذري حفني ود. محمد شعلان، و كان أشهر هذه الأبحاث هو بحث "رؤى الصراع"، والذي يهتم بالجوانب الاجتماعية والنفسية للصراع ومولته هيئة المعونة الأمريكية والمركز الأكاديمي الإسرائيلي، بالإضافة إلى عقد العشرات من المؤتمرات العلمية والثقافية، واختراق الاتحادات الطلابية والجامعات المصرية (مشاركة إسرائيل بوفود علمية وثقافية رفيعة في مؤتمر العلوم والطاقة النووية الشهير، الذي عقد بالإسكندرية عام 1986، وبعده مؤتمر القانون الدولي الذي عقد في جامعة القاهرة). وفي غضون هذا الهشاشة التي أصابت المشاعر العامة تجاه التطبيع، أنشئ المركز الأكاديمي الإسرائيلي بالقاهرة عام 1982، ليمثل أخطر مظاهر الاختراق الصهيوني للمجتمع المصري في المرحلة التالية لمبادرة القدس عام 1977، والذي اكتشف بداخله خلال عامي 1985،

و 1986 ثلاث شبكات للتجسس مكونة من عدد من
الأمريكيين والإسرائيليين واليهود المصريين.